



## قواعد التحديث

من فنون مصطلح الحديث

نعمه « مكتب النعم العربي دمشق »

للأستاذ الأمير شكيب أرسلان

اطلعت في مجلة « الرسالة » المصرية على كلام للأخ الأستاذ العلامة محمد بك كرد على ينتقد فيه كتاب « قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث » للمرحوم العلامة الأستاذ الشيخ جمال القاسمي بأنه كتاب قد جمع جمعاً ولم يأت صاحبه فيه إلا برأى واحد وهو ترجيح قول الجلال الدواني على قول الشهاب الخفاجي في عدم التسامح بالأحاديث الضعيفة ولو كانت في مقام الترغيب في الفضائل . وقال : إن طريقة التأليف في عهد الارتقاء العلمي هي أن يأتي كلام المؤلف أكثر من شواهد ، وأنه لما ضعفت ملكة التأليف أصبحت الكتب عبارة عن نسخ أقوال من سلف ، وربما كان الشيخ جمال القاسمي آخر من جرى على هذه الطريقة وهي بسط آراء غيره ؟ وأنه قد حدثت في التأليف طريقة جديدة اليوم وهي أن المؤلف في فن يقتصر على لباب ما قرأ فيه ، ويدعم أقواله بشواهد من كتب القدماء أو المحدثين بأسلوب سهل سائغ خال من الخطايات والسجع ؟

فالأستاذ كرد على ينتقد هذا التأليف رأساً من جهة أنه ليس على طريقة التأليف المصرية التي هي بزعمه الاكتفاء بالإشارة إلى ما كتبه القدماء أو التباخيص لأقوالهم بدون التزام النقل إلا ما جاء في سبيل التأييد والدعم . ثم إنه لم يكتف بيقظ الكتاب نفسه بل انتقد ناشره بأنه قدم له أربع مقدمات ، ثلاث لبعض الماصرين ورابعة للمؤلف ، وأن هذه المقدمات استغرقت أكثر من عشرين صفحة وما خرج الكلام في بعضها عن الدعاية

والتمجيد ؟ وكان الأستاذ كرد على يريد انتقاد أخيه هذا في المقدمة التي من قلبي والتي أذكر فيها ما أعرفه عن الشيخ جمال القاسمي رحمه الله . وبمباراة أخرى قد نقل على أختينا الأستاذ ما صدرنا به كتاب « قواعد التحديث » من مناقب مؤلفه ، ولقد كنت أتمنى ألا يكون الأستاذ كرد على جمل من هذا موضعاً لنقده . وأنا أتمنى الآن أن أكون أسأت فهم كلامه . فأما من جهة مؤلف هذا الكتاب الشيخ جمال القاسمي فإنه من مفاخر الشام بالاتفاق ، وعين سار ذكر فضائلهم في الآفاق ، وليس محمد بك كرد على بالذي يجهل ذلك أو يقدر أن يعارى فيه ، وإني لجدت مستغرب منه ضيق صدره بثنائى على رجل لا يبارى اثنان في دمشق الشام في كونه من أفئدة هذا العصر ومن العلماء الذين تحتج بمنثلهم دمشق في كل مقام مباهاة

فأنا لم أكتب عن الشيخ جمال القاسمي إلا ما أعلمه وأعتقد ، وإذا كان أخونا كرد على يسمي ذلك « تمجيداً » فإن التمجيد في عمله لا يكون موضع نقد ، فإن لم يمجّد الانسان مثل الشيخ جمال القاسمي في علمه واحاطته ، وقوة حجته ، ودماثة خلقه ، وورقة طبعه ؛ وسائر ما امتاز به من خلال الظير الكثيرة ، فيكون هو المقصر ، وهو الذي يستحق النقد . ما كنت أحب أن يغمز الأخ كرد على بي في مسألة كهذه ، ولا أعلم لماذا فعل ذلك ؟ وأما من جهة التأليف نفسه فإن الأستاذ الأكبر السيد رشيد رضا قد أعطاه حقه في إحدى المقدمات الأربع التي أشار إليها حضرة الأخ ، وقد ذكر كل ما يلزم من بيان مزايا الكتاب وقال أنه لا يعرف كتاباً مثله في موضوعه وسيلة ومقصد ومبدأ وغاية ، ونظن أن السيد رشيد رضا هو من بضع الهدى موضع النقاب ، ولا يكون مخالفاً للواقع إذا قلت إنني أنا والأخ كرد على لا نقدر أن نتكلم في علم الحديث إذا كان السيد رشيد رضا قد تلقف فيه كرة البحث

وبعد هذا فليست أرى ما يراه الأخ من أن القاسمي جمع جمعاً ،

وان الجمع في التأليف هو خطة عهد التأخر ، بل قد وجد الجمع في كل من عهدي التقدم والتأخر . وفي أوروبا اليوم كتب كثيرة لا يزيد فيها أصحابها على الجمع ، وهم يتركون فيها الحكم لأرباب النظر ، وقد يوجد الانسان في ظروف زمانية أو مكانية تمنعه من التصريح برأيه ومن الترجيح والتجريح لاختلاف أذواق من يخاطبهم ، فيكون الجمع حينئذ هو أمثل الطرق ، ويكون كل قارى قادراً أن يستق من هذا الجمع ما يستعذبه . فالشيخ جمال القاسمي كان يعلم ما في عصره ومصره من طبقات مختلفة ومنازع متباينة ، وكان هدفه ألا يصادم مشرباً خاصاً ولا يحكم لمذهب على مذهب ، بل يجمعها كلها تحت راية الهدى النبوي ، وينظم كلام ابن تيمية مثلاً إلى كلام الشمراني والشيخ الأكبر بحيث يكون كل من الطبقتين السلفية والصوفية واجدين في هذا الكتاب طلبتهم . وقد نسي أخونا الأستاذ كرد علي عنده الشيخ جمال القاسمي عام ١٣١٣ عندما أتهم بالاجتهاد هو والمرحوم الشيخ عبد الرزاق البيطار وآخرين من رفاقهما واعتقلوا من أجل ذلك وأهينوا ، فأصبح مثل الشيخ جمال وقد عضته الصراحة بأنبيائها يتجنب الخوض فيما يؤدي به إلى نكبة ، ويمجد الاكتفاء بمرض الآراء أسلم ، وربما أعلم أيضاً ، لأن مثل هذه الآراء لا ينتهي الخلاف فيها ، ولا تزال كل طائفة يجادل في كونها على حق إلى يوم القيامة . فني بعض المواقف يكون الكوت أفصح من البيان ، وأبعد عن مثار الشبهات لاسيما عندما يكون العالم الخبير بامور عصره وشؤون قطره واثقاً بأن الصلحة هي في جمع الكلمة ، وأن جمع الكلمة تحت راية الهدى النبوي لا يتأتى بالترجيح والتجريح والقول بأن هذا فاسد وهذا صحيح إلا في المسائل التي لاخلاف فيها بين العلماء والتي إنما يختلف فيها العوام . . .

فكتاب « قواعد التحديث » لو كان يؤتي من هذه الجهة لما أطراه مثل صاحب النار هذا الاطراء كله وهو في علم الحديث الجليل الذي لا يطاؤك والبحر الذي لا يساجل ، كما أنه يعلم من طرق التأليف القديمة والتوسطة والمصرية ما لا يقدر أن يتكره العلامة الكردي علي . ثم إن هناك غمراً بالسجع ، وليس الأخ كرد علي وحده الذي بدأ بهذا النمز ، بل كان أحد أصحاب أطلعتني على كتاب للدكتور زكي مبارك لمحت فيه كلاماً يشبه أن يكون استصفاً للسجع أو استكباراً لأتباعه ؛ وهذا باب جديد

عجيب إذا أردنا الآن أن ندخل فيه يطول بنا الأمر . فنكتفي بالقول إن السجع وُجد في الجاهلية وجاءت منه أمثلة لأفصح فصحاءها ، ثم جاء في القرآن الكريم ، بل القرآن الكريم كله سجع وهو أبلغ الكلام العربي وغير العربي ، وجاء في كلام الصحابة والمخضرمين ثم في الطبقة التي تليهم ، ثم في التي تليهم ثم في التي تليهم إلى يومنا هذا . ولم نعلم أحداً طاب السجع من حيث هو ، وإنما يعاب السجع بالنسبة إلى المقام الذي يستعمله فيه الكاتب ، أي إنه لما كان السجع تقييداً بفواصل كما هو الشعر تقييداً بقوافٍ فلم يكن السجع مستحسنًا في المواطن التي يجب أن ينطلق فيها عقال القلم لكمال تأدية المعاني على وجهها . وأما في المواطن التي هي أقرب إلى الشعر منها إلى الباحث العلمية الصرفة ، فليس السجع بالذي يُمد سبباً على العربية ، بل هو من محاسن هذه اللغة . وإن كان يجب حذفه من هذه اللغة من أجل كونه طريقة قديمة ومن أجل أنه عبارة عن زينة كلامية فإن هذا يؤدي بنا إلى اقتراح حذف الشعر أيضاً ، فإن الشعر هو من قبيل السجع طريقة قديمة وزينة كلام تتوخى فيها المحاسن اللفظية كما تتوخى المحاسن المعنوية ويراعى فيه الوزن والقافية وهو من قبيل الموسيقى . والموسيقى هي أيضاً قديمة والطبيعة البشرية تألقها بل تحتاج إليها بل تهتف بها . والشعر ضرب من الموسيقى ، فهو إذن من مقتضيات الطبيعة البشرية . والسجع وإن لم يكن مقيداً بكل تقييد الشعر فهو مقيد أيضاً بقيود لها مواقع في النفوس ، وهي في عملها مطربة مستعذبة ولا غبار عليها ، ولا يقدر أحد أن يقول إنني أنا مفرط في هذا المذهب لأنه ليس لأحد من الكلام المرسل أكثر مما لي ، ولكني لا أزال أرى السجع حلية الكلام العربي عندما يكون في عمله ، وذلك مثل مقدمات الكتب ومثل الخطب التي تلقى على الجماهير . وإن العرب قد اصطالحوا على السجع في أسماء الكتب ولم يخطئوا في ذلك لأن الكلام المجمع أعلق في الذهن من غيره . وعسى كلامي هذا يكون مقبولاً عند أخي الأستاذ الكردي علي ، ولا تتأثر به آصرة الأبناء القديم الذي بيننا والذي لا يمكن أن يطرأ عليه ما يوهنه بهما كان السبب ثقيلًا . فكيف إذا كان خفيفاً . وإن أدري فقد يكون أراد أن يداعبني ، ولا تكون هذه أول مداعبة بيننا

عجيب أرسله

جنيف